الباب الثاني

في حقيقةِ الصّبر، وكلام الناس فيه

قد تقدَّم بيان معناه لغةً، وأما حقيقته فهو خُلُق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل مالا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها، وقوام أمرها وسُئل عنه الجُنيد بن محمد، فقال: «**تجرُّع المرارة من غير تعبس**».

وقال ذو النون: «**هو التباعد عن المخالفات والسكون عند تجرع غصص البلية وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة**». وقيل: «**الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب**». وقيل: «**هو الغنى في البلوى بلا ظهور شكوى**».

وقال أبو عثمان: «**الصبار هو الذي عود نفسه الهجوم على المكاره**». وقيل: «**الصبر المقام على البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية**». ومعنى هذا أن لله على العبد عبودية في عافيته وفي بلائه، فعليه أنْ يحسن صحبة العافية بالشكر، وصحبة البلاء بالصبر.

وقال عمرو بن عثمان المكي: «**الصبر هو الثبات مع الله وتلقّي بلائه بالرحب والدعة**»؛ ومعنى هذا أنه يتلقى البلاء بصدر واسع لا ينفلق بالضيق والسخط والشكوى.

وقال الخواص: «**الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة**». وقال رويم: «**الصبر ترك الشكوى**». فسَّره بلازمه. وقال غيره: «**الصبر هو الاستعانة بالله**». وقال أبو علي: «**الصبر كاسمه**».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**الصبر مطية لا تكبو**».

وقال أبو محمد الحريري: «**الصبر أن لا يفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما**».

قلت: وهذا غير مقدور ولا مأمور فقد ركب الله الطباع على التفريق بين الحالتين وإنما المقدور حبس النفس عن الجزع، لا استواء الحالتين، عند العبد وساحة العافية أوسع للعبد من ساحة الصبر كما قال النبي ﷺ في الدعاء المشهور: «**إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي غير أنَّ عافيتك أوسع لي**». ولا يناقض هذا قوله ﷺ: «**وما أُعطيَ أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر**»، فإن هذا بعد نزول البلاء ليس للعبد أوسع من الصبر، وأما قبله فالعافية أوسع له.

وقال أبو علي الدقاق: «**حد الصبر أن لا يعترض على التقدير**» فأما إظهار البلاء على غير وجه الشكوى فلا ينافي الصبر. قال الله تعالى في قصة أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ (سورة ص: ٤٤) مع قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ (الأنبياء: ٨٣) قلت: فسّر اللفظة بلازمها وأما قوله: «**على غير وجه الشكوى**» فالشكوى نوعان: أحدهما الشكوى إلى الله فهذا لا ينافي الصبر كما قال يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (يوسف: ٨٦) مع قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (يوسف: ٨٣) وقال أيوب: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ مع وصف الله له بالصبر.

وقال سيّد الصابرين صلوات الله وسلامه عليه: «**اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلّة حيلتي**» إلخ. وقال موسى صلوات الله وسلامه عليه: «**اللهم لك الحمد، وإليكَ المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك**».

والنوع الثاني - شكوى المبتلي بلسان الحال، أو المقال، فهذه لا تجامع الصبر بل تضاده وتُبطله، فالفرق بين شكواه والشكوى اليه وسنعود لهذه المسألة في باب اجتماع الشكوى والصبر وافتراقهما إن شاء الله تعالى، قيل: «**الصبر شجاعة النفس**». ومن هاهنا أخذ القائل قوله: «**الشجاعة صبر ساعة**». وقيل: «**الصبرُ ثبات القلب عند موارد الاضطراب**».

والصبر والجزع ضدّان. ولهذا يقابل أحدهما بالآخر، قال تعالى عن أهل النار: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (إبراهيم: ٢١) والجزع قرين العجز وشقيقه والصبر قرين الكيس ومادته، فلو سُئل الجزع من أبوك؟ لقال: العجز، ولو سُئل الكيس من أبوك؟ لقال: الصبر. والنفس مطية العبد التي يسير عليها إلى الجنة أو النار والصبر لها بمنزلة الخطام والزمام للمطية فإن لم يكن للمطية خطام ولا زمام شردت في كل مذهب وحفظ من خطب الحجاج: «**اقدعوا هذه النفوس فإنها طلعة إلى كل سوء**». فرحم الله امرءًا جعل لنفسه خطاماً وزماماً فقادها بخطامها إلى طاعة الله وصرفها بزمامها عن معاصي الله فإن الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه.

قلت: والنفس فيها قوتان: قوة الإقدام، وقوة الإحجام فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه وقوة الإحجام إمساكاً عما يضره.

ومن الناس من تكون قوة صبره على فعل ما ينتفع به وثباته عليه أقوى من صبره عما يضره فيصبر على مشقة الطاعة ولا صبر له عن داعي هواه إلى ارتكاب ما نهى عنه.

ومنهم من لا صبر له على هذا ولا على ذاك وأفضل الناس أصبرهم على النوعين فكثير من الناس يصبر على مكابدة قيام الليل في الحر والبرد وعلى مشقة الصيام، ولا يصبر عن نظرة محرمة وكثير من الناس يصبر عن النظر وعن الالتفات إلى الصور ولا صبر له على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين بل هو أضعف شيء عن هذا وأعجزه.

وأكثرهم لا صبر له على واحد من الأمرين، وأقلهم أصبرهم في الموضعين، وقيل: «**الصبر ثبات باعث العقل والدين في مقابلة باعث الهوى والشهوة**». ومعنى هذا: أنَّ الطبع يتقاضى ما يجب، وباعث العقل والدين يمنع منه، والحرب قائمة بينهما وهي سجال، تعرك هذه الحرب قلب العبد والصبر والشجاعة والثبات.

□